من تراث

الإمام أبي حفص عمر السهروردي

الرسالة التاسعة

سبب الغم والهم

مقدّمة

يُجيبُ الشيخُ شهابُ الدِّينِ السُّهروردِيُّ في هٰذه الرِّسالةِ الوجيزةِ عن سؤالٍ وُجِّهَ إليهِ يتعلَّقُ بالغمِّ والهمِّ اللَّذين يَعرِضانِ للبشرِ : ما هما ؟ وما أسبابُ وقوعِهما ؟ وما السَّبيلُ إلى التَّخلُّصِ منهما ؟

والمُنطلَقُ الَّذي بدَأَ منهُ السُّهرَوَرْدِيُّ في الجوابِ اعتمَدَ على تبيينِ معنى الهمِّ والغمِّ ، وإيضاحِ ما بينَهُما مِن فَرقٍ ، وتوقيفِ السَّائلِ على أسبابِهما ؛ إذْ إنَّ معرفةَ السَّببِ أوَّلُ الخُطُواتِ في سبيلِ الشِّفاءِ منهما ، والتَّخلُّصِ مِنْ آثارِهما ؛ ولذٰلكَ قالَ في أوَّلِ الجوابِ : (ورَدَ كتابُكَ ـ أكرَمَكَ اللهُ بكرامةِ التَّوفيقِ ـ تسألُ ما أُبيِّنُ لكَ : ما الغمُّ والهمُّ العارِضانِ لكثيرٍ مِنَ العالَمِ [1] ، وقلَّةُ النَّاجِي والمُخلَّصِ منهما ، وكيفَ استِحواذُهُما عليهِم ، معَ ما فضَّلَهُم بهِ الرَّبُّ جلَّ اسمُهُ مِنَ العُقولِ والتَّمييزِ) .

ثمَّ قالَ : (ويجبُ أن تَعلمَ ـ وفَّقكَ اللهُ للخيرِ ، وجَعَلَكَ أهلاً لهُ ـ أنَّ كُلَّ ألَمٍ غيرِ معرُوفِ الأسبابِ غيرُ معروفِ الشِّفاءِ ، فيجبُ أن نُبيِّنَ ما الهمُّ والغمُّ ، وما سببُهما ؟ فيكونُ شفاؤُهما ظاهرَ الوجودِ إنْ شاءَ اللهُ سبحانَهُ » .

وقدْ بيَّنَ حقيقتَهُما أتمَّ بيانٍ ، وأوضَحَ الفَرقَ بينهَمُا ، وكشَفَ عن أعراضِ ابتلاءِ الإنسانِ بهما ، وما يَحصُلُ لهُ إذا أُصيبَ بأحدِهِما ، وجاءَ جوابُهُ دالّاً على خِبرتِهِ الواسعةِ بأحوالِ القلوبِ وطبائعِ البَشَرِ .

ومِنْ جميلِ ما أوصى بهِ فيها : أن يَلزَمَ الإنسانُ جانبَ القَناعةِ والرِّضا ، وأنْ يُباعِدَ الطَّمَعَ عن نَفسِهِ وقَلبِهِ ؛ فإنَّ المحبوباتِ والمكروهاتِ ليسَتْ بأشياءَ لازمةٍ

---

(١) السهروردي هنا يخاطب أحد المريدين ، الذي يبدو أنه يجيب عن سؤاله عن الغم والهم وأسبابهما وكيفية الخلاص منهما .

في الطَّبعِ بحيثُ لا يكونُ الشَّيءُ المحبوبُ إلَّا محبوباً أبداً ، ولا تكونُ الأشياءُ الَّتي تَكرَهُها النُّفوسُ إلَّا مكروهةً أبداً ؛ بلِ الأمرُ مردُّهُ إلى العاداتِ ، وأنَّ تعويدَ الإنسانِ نفسَهُ على التَّسلِّي والصَّبرِ يُمكِّنُ الإنسانَ مِن دَفعِ الهمِّ والغمِّ اللَّذينِ يَحصُلانِ بسببِ حصولِ المكروهاتِ .

ومِنْ محاسنِ طريقتِهِ في الرِّسالةِ : سياقُهُ لبعضِ الحكاياتِ الَّتي يُؤخَذُ منها العِظاتُ والعِبَرُ في عدمِ الرُّكونِ إلى الدُّنيا ومتاعِها ، والتَّنافُسِ في تحصيلِ عَرَضِها الفاني ؛ إذْ إنَّ التَّعلُّقَ بها سببٌ عظيمٌ مِنْ أسبابِ حصولِ الهمومِ والغمومِ .

ولخَّصَ السُّهرورديُّ في آخِرِ الرِّسالةِ الجوابَ في كلماتٍ مختصرةٍ ، حاصلُها : أنَّ الهمَّ والغمَّ اللَّذينِ يَقَعانِ في العالَمِ ليسا بِلازِمي الوقوعِ ، وأنَّ رأسَ السِّياسةِ العقليَّةِ تركُ اتِّباعِ الشَّهَواتِ والهَوَىٰ ، وقَمعُ النَّفسِ عن باطلِ الأمانيِّ وكاذبِ المواعيدِ .

وختاماً نقولُ : إنَّ علماءَ المسلمين قبلَ السُّهروردِيِّ وبَعدَهُ تَفطَّنُوا إلى الكتابةِ في مسألةِ الهمِّ والغمِّ ؛ فألَّفَ بعضُهُم فيها تأليفاً مستقلّاً ؛ منهمُ الحافظُ أبو بكرِ ابنُ أبي الدُّنيا (ت ٢٨١ هـ) ، فلهُ كتابُ « الهمُّ والحَزَنُ »[١]

وبوَّبَ بعضُ العلماءِ في كُتُبِهم أبواباً حولَ الأذكارِ المُستعمَلةِ في دفعِ الهمِّ والحَزَنِ ؛ منهمُ المُنذِرِيُّ (ت ٦٥٦ هـ) في « التَّرغيبِ والتَّرهيبِ »[٢] ، والنَّوويُّ (ت ٦٧٦ هـ) في « الأذكارِ »[٣] ، وابنُ تيميَّةَ (ت ٧٢٨ هـ) في « الكَلِمِ

---

(١) طبع بدار السلام بالقاهرة ، سنة (١٩٩١ م) بتحقيق مجدي فتحي السيد ، وطبع ضمن موسوعة ابن أبي الدنيا ، وصدر عن دار أطلس الخضراء بالرياض ، بتحقيق فاضل بن خلف الحمادة الرقي ، وتقع الرسالة في المجلد السادس .

(٢) ينظر « الترغيب والترهيب » (٢/٣٨٠) .

(٣) ينظر « الأذكار » (ص ١٢١) ، ط . دار الفكر بيروت .

الطَّيِّبِ »[1] ، وشمسُ الدِّينِ ابنُ الجَزَرِيِّ (ت ٨٣٣ هـ) في « عُدَّةِ الحِصنِ الحَصينِ »[2]

وَعَقَدَ ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ (ت ٧٥١ هـ) فصلاً في كتابِه « زادُ المَعادِ في هَدْيِ خَيرِ العِبادِ » بعُنوانِ : (فَصلٌ في هَديِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في عِلاجِ الكَربِ والهمِّ والغمِّ والحَزَنِ)[3] . وغيرُ ذٰلكَ مِمَّا زَخَرَ بهِ تراثُ المُسلِمينَ .

---

(١) ينظر « الكلم الطيب » (ص ٥٦) ، ط . دار الفكر اللبناني .

(٢) ينظر « تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين » (ص ٢٩٣) ، ط . دار القلم .

(٣) ينظر « زاد المعاد » (٤/١٨٠) .

وصف النسخة المعتمدة في التحقيق

مخطوطٌ بمكتبةِ السُّليمانيَّةِ ، للإمام شهابِ الدِّينِ السُّهرَوَرْدِيِّ (٦٣٢ هـ) ، إستانبول ، الشَّهيدُ علي باشا ، رقم المجموعة (٠٠٤ ـ ١٣٨٢) الأوراق (٢٥ ـ ٣٢) . في نسخةٍ يتيمةٍ لم أجد لها زوجاً .

ولم أجد لهذا المخطوطِ عُنواناً مُستقِلاً بعَينِه ، وإنَّما اقتبستُهُ مِن مقدِّمةِ السُّهرَوَرْدِيِّ نفسِهِ .

نماذج من صور المخطوط

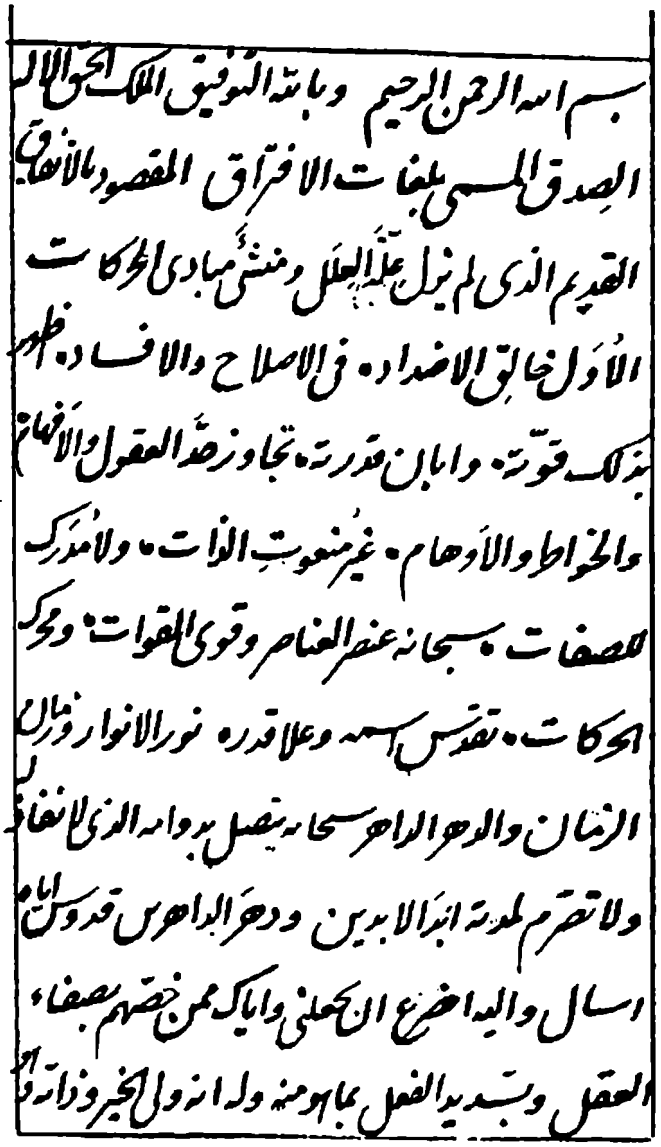

بسم الله الرحمن الرحيم وبالله التوفيق الملك الحق الا
الصدق المسمى بلغات الافراق المقصود بالانفاق
القديم الذى لم يزل علة العلل ومنشئ مبادى الحركات
الاول خالق الاضداد. فى الاصلاح والافساد. اظهر
بذلك قوته. وابان قدرته. تجاوز حد العقول والافهام
والخواطر والاوهام. غير منعوت الذات. ولا مدرك
للصفات. سبحانه عنصر العناصر وقوى القوات. ومحرك
الحركات. تقدس اسمه وعلا قدره نور الانوار ومزمان
الزمان والدهر الداهر سبحانه يتصل بدوامه الذى لا انفاد
ولا تصرم لمدته ابد الابدين ودهر الداهرين قدوس ايام
اسال واليه اضرع ان يحلنى واياك ممن خصهم بصفاء
العقل وتسديد الفعل بما هو منه وله انه ولى الخير وذاته

لعله
وقوة

لعله
الازمان
بجاز زمن

نسخة المكتبة السليمانية تركيا

وهو على كل شئ قدير ورد كتابك اكرمك الله بكرامة
التوفيق تسأل ما ابين لك ما الهم والغم العارضان لكثير
من العالم وقلة الناجي والمخلص منهما وكيف استحواذهما عليهم
مع ما فضلهم به الرب جل اسمه من العقول والتمييز اذ كان لابد
لم يخلق من مخلوقاته معوزا من مصلحته بل كان ما خلقه مكتفيا حتى لا
شيئا من مخلوقاته محتاجا الى غيره ثم فضل الانسان بالنطق
والبيان ومعرفة الدلايل والبرهان بم يعوض له مع ما هو
عليه من شريف الخلق وسني العقل الهم والغم فهل ذلك موجود
في الحصة ام عرض داخل وفكر فاسد بفساد ذاته وبعض
الآفة السفافة بالعقل المؤدية للفهم فرايت ان اجيبك
اكرمك الله بما اعلمه وما قسم لي من نوره اذ كان ما تأدى اليه
وان تناهينا فغير واجدين نهاية من العلم حتى نبلغ الى نهايته
فتبارك غاية الغايات ونهاية النهايات ويجب ان تعلم
وفقك الله للخير وجعلك اهلا له ان كل الم غير معروف الاسباب
غير معروف الشفاء فيجب ان نبين ما الهم والغم وما سببهما

نسخة المكتبة السليمانية تركيا

سبب الغم والهم

بسم الله الرحمن الرحيم

وبالله التوفيق

الملكُ الحقُّ الإلهُ الصمدُ ، المسمَّى بلُغاتِ الافتراقِ ، المقصودُ بالاتِّفاقِ[1] ، القديمُ الَّذي لمْ يزَل عِلَّةَ العِلَلِ ، و مُنشِئَ مَبادِئ الحرَكاتِ الأُوَلِ ، خالِقُ الأضدادِ في الإصلاحِ والإفسادِ ، أظهرَ بذلكَ قُوَّتَهُ ، وأبانَ قُدرتَهُ ، تَجاوزَ حدَّ العُقولِ والأفهامِ ، والخَواطِرِ والأوهامِ ، غيرُ مَنعوتِ الذَّاتِ ، ولا مُدرَكُ الصِّفاتِ[2] سبحانَهُ .

عُنصُرُ العَناصِرِ ، وقُوَى[3] القُوَّاتِ ، ومُحرِّكُ الحركاتِ ، تقدَّسَ اسمُهُ ، وعَلا قَدرُهُ ، نُورُ الأنوارِ ، وزمانُ الزَّمانِ[4] ، والدَّهرُ الدَّاهِرُ سبحانَهُ ، يتَّصلُ بدَوامِهِ الَّذي لا نفادَ لهُ ، ولا تَصرُّمَ لمدَّتِه ، أبدَ الآبِدِينَ ودَهرَ الدَّاهِرينَ .

قُدُّوسٌ ، إيَّاهُ أسألُ ، وإليهِ أضرَعُ ؛ أنْ يجعلَني وإيَّاكَ ممَّنْ خصَّهُم بصفاءِ العقلِ ، وبِسَديدِ الفِعلِ ، بما هو منهُ ولهُ ؛ إنَّهُ وليُّ الخيرِ وذاتُهُ ، وهو علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٍ .

ورَدَ كتابُكَ ـ أكرمَكَ اللهُ بكرامةِ التَّوفيقِ ـ تسألُ ما أُبيِّنُ لكَ ما الغمُّ والهمُّ العارِضانِ لكثيرٍ مِنَ العالَمِ ، وقِلَّةُ النَّاجِي والمخلَّصِ[5] منهما ، وكيفَ

---

(١) أي : أنَّه تعالىٰ هو المقصودُ قلباً ، المعنيُّ طلباً ، تتَّفقُ الأممُ (أممَ التَّوحيدِ) في القصدِ والتَّوجُّهِ إليه ، وتَفترِقُ في النُّطقِ والدَّلالةِ عليه ، وتَشتَقُّ عن هٰذا مسألةٌ تُذكرُ عند علمائِنا ؛ وهي : هلِ الأصلُ في الأسماءِ التَّوقيفُ أمِ الإصطلاحُ ؟ وهل يجوزُ دعاءُ اللهِ ومناداتُه بغيرِ ما سمَّىٰ ووصفَ به نفسَه مِن أسمائِه وصفاتِه أم لا ؟

(٢) في الأصل : (للصفات) .

(٣) في الحاشيَةِ : (لعلَّ : وقوَّة) .

(٤) في الحاشية : (لعل : الأزمان ؛ جمع زمن) .

(٥) في حاشِيَةِ المخطوط : (المتَخلِّصُ) .

استِحواذُهُما علَيهِم معَ ما فضَّلَهُم بهِ الرَّبُّ جلَّ اسمُهُ مِنَ العُقولِ والتَّمييزِ ؛ إذْ كأنَّ اللهَ سبحانَهُ لمْ يَخلُق مِنْ مخلُوقاتِهِ مُعْوِزاً مِنْ مَصلَحتِهِ ؛ بل كانَ ما خلَقَهُ مَكفِيّاً ؛ حتَّىٰ لا يَرىٰ شيئاً مِنْ مخلُوقاتِهِ محتاجاً إلىٰ غيرِهِ .

ثمَّ فضَّلَ الإنسانَ بالنُّطقِ والبيانِ ، ومَعرفةِ الدَّلائلِ والبُرهانِ بِمَا يَعرِضُ لهُ ، مع ما هو عليهِ مِنْ شريفِ الخَلقِ وسَنِيِّ العَقلِ .

الهمُّ والغمُّ : فهل ذٰلك موجودٌ في الحقيقةِ ؟ أم عَرَضٌ داخلٌ وفِكرٌ فاسِدٌ بفسادِ ذاتِهِ ، وبعضِ آلاتِهِ السَّفَّافةِ[1] بالعقلِ المؤذِيةِ للفهمِ ؟

فرأيتُ أن أُجيبَكَ ـ أكرمَكَ اللهُ ـ بما أَعلَمُهُ ، وما قُسِمَ لي مِنْ نُورِهِ ؛ إذْ كانَ ما نتأدَّىٰ إليهِ وإنْ تَناهَينا ، فغيرُ واجِدِينَ نهايةً مِنَ العِلمِ حتَّىٰ نَبلُغَ إلىٰ نهايتِهِ ، فتَبارَكَ غايةُ الغاياتِ ونهايةُ النِّهاياتِ .

ويجبُ أنْ تَعلمَ ـ وفَّقكَ اللهُ للخيرِ ، وجعلَكَ أهلاً لهُ ـ : أنَّ كلَّ ألَمٍ غيرِ معرُوفِ الأسبابِ غيرُ معروفِ الشِّفاءِ ؛ فيجبُ أن نُبيّنَ ما الهمُّ والغمُّ ؟ وما سببُهُما ؟ فيكونُ شفاؤُهُما ظاهرَ الوُجودِ إنْ شاءَ اللهُ سبحانَهُ .

نقولُ :

إنَّ الهمَّ : تَقَسُّمُ الأفكارِ ، وَحَيرةُ النَّفسِ وخُمولُها ، وهو سريعُ الزَّوالِ .

والغمُّ : خطرٌ كبيرٌ[2] ، وأمرٌ عظيمٌ ، يُذِيبُ القُوَّةَ ، ويُفتِّرُ الحرارةَ ، ويَهدِمُ الجِسمَ ، ويُكوِّرُ[3] الأوقاتَ ، ويُقصِّرُ مادَّةَ العُمُرِ ، وهو ألَمٌ نَفسانيٌّ يَعرِضُ لفَقدِ مَحبوبٍ ، أو لفَوتِ مَطلوبٍ .

ولو فكَّرُوا في هٰذا العالَمِ الدَّنِيِّ التَّالِفِ : لِما هُم ؟ وفيما هُم ؟ . .

---

(١) في حاشية المخطوط : (شَفّ معجمة ، سفّ مهملة) .

(٢) في الأصلِ : (كثيرٌ) ، ولعلَّ الصوابَ ما أثبتُّ .

(٣) في حاشيةِ المخطوط : (يُكدِّرُ) ، وأشار إلىٰ أنها نسخة .

لَعلِمُوا أنَّهُم أعراضٌ زائلةٌ ، وأشباحٌ حائلةٌ ، تَتصرَّفُ بِهِمُ الأيَّامُ ، وتُقلِّبُهمُ الأوقاتُ .

فالواجبُ أن يَبدَؤوا[1] بالغمِّ على نُفوسِهِم ؛ فهو أولَى مِنَ الغمِّ على مَحبوباتِهِم ومَطلُوباتِهِم ؛ إذْ يَعلَمونَ أنَّهُم سَيَعدمونَ ما عَدِموهُ ، ويَفقِدونَ ما فقَدوهُ ، وتقدَّمَتْ مَعرِفتُهُم بذلكَ وتيَقَّنُوهُ ، وأنَّ نُفوسَهُم وأعراضَهُم غيرُ باقيةٍ ؛ لأنَّ كلَّ ما كانَ في عالَمِ الكَونِ والفسادِ . . فمُضمَحِلٌّ زائلٌ ، فكأنَّ مُرادَهُم إنْ طَلَبوا الثَّباتَ والدَّوامَ موجودانِ في عالَمِ العقلِ ، فكأنَّ مَنْ طَلَبَ مِنَ الزَّمانِ ما ليسَ فيه . . أرادَ منهُ ما ليسَ في طبعِهِ ، ومَنْ أرادَ مِنَ الطَّبعِ ما ليسَ في الطَّبعِ . . أرادَ ما ليسَ بموجودٍ ، ومَنْ أرادَ غيرَ موجودٍ . . عَدِمَ طِلْبَتَهُ ، والعادمُ طِلبَتَه مُعنًى شَقِيٌّ .

فينبغي للعاقلِ : أنْ يطلُبَ ما يُسعِدُهُ دُونَ ما يُشقِيهِ ، ويَحترِزَ مِنْ سُلوكِ طُرُقِ الشَّقاءِ والجهلِ .

وأقولُ : إنَّ مَنْ يَعرِفُ الزَّمانَ ، ويحتَسِبُ[2] أصولَ الأحوالِ : متى زالَتْ عنهُ عادةُ جَردِ الدُّنيا . . فارقَها معَها الشَّهواتُ الحِسِّيةُ ؛ مِنْ لَذيذِ الطَّعامِ[3] ، وطِيبِ الشَّرابِ ، ومَليحِ الملبُوسِ والمنكُوحِ ، وما شاكَلَ ذلكَ .

وقدْ تقرَّرَتْ معرفتُهُ أنَّهُ أعراضٌ لا يُملَكُ إلَّا مِنْ جهتينِ :

إمَّا اكتِسابُ مُغالَبةٍ .

أو اكتِسابٌ بضَربٍ مِنَ الحِيلَةِ الَّتي يُسمِّيها النَّاسُ تِجارةً وصِناعةً ، وتَيقُّنُهُ أنَّهُ لا بُدَّ أن يَضمَحِلَّ في ذاتِهِ ، ويَضمَحِلَّ محبوباتُهُ ، ثمَّ يُدرِكُهُ ذلكَ .

---

(١) في حاشيةِ المخطوط (نَبذْ) ، لعلَّه يريدُ أن الكَلِمةَ : (نَبذوا) ، والله أعلم .

(٢) في حاشيةِ المخطوط : (ويختبرُ) ، وأشار إلى أنها نسخة .

(٣) في المخطوط : (العطام) ، والصوابُ ما أثبتُّ .

فكأنَّهُ أرادَ ـ ما قدَّمنا ذِكرَهُ آنِفاً ـ مِنَ الفاسدِ ألَّا يكونَ فاسداً ، ومِنَ الزَّائلِ ألَّا يكونَ زائلاً ، وإذا أرَدنا ألَّا نُصابَ بمُصيبةِ ألبَتَّةَ . . فإنَّا لا نكونُ ألبَتَّةَ ؛ لأنَّ المصائِبَ لا تكونُ إلَّا بفسادِ الفاسدِ ، فإنْ لمْ يكُنْ فاسِداً . . لم يَكُنْ كائناً[1] ، ولو قَصَدَ بمَحبوباتِها الثَّباتَ والبقاءَ . . لقَصَدَ طبعُهُ البقاءَ بالطَّاعةِ ، وألزمَ نفسَهُ في العاجِلَةِ القَناعةَ ، ولمْ يَستقبِلْ ما يأتيهِ بحرصٍ ولا بتعَبِ نفسِهِ ما زالَ عنهُ وفاتَهُ بندَمٍ وأسَفٍ ، بل أدَّبَ نفسَهُ تأديبَ الملوكِ الأجِلَّاءِ ، الآخِذينَ نُفوسَهُم بحقيقةِ الأدبِ ؛ فهُم لا يَستقبِلونَ آتياً ، ولا يُودِّعونَ ظاعِناً ، فأمَّا حَشْوُ النَّاسِ وهَمَجُهُم . . فمُشيِّعونَ كلَّ غائبٍ ، ومُستقبِلونَ كلَّ آيِبٍ[2]

فإذا أدَّبَ الإنسانُ نفسَهُ بآدابِ الحقِّ ، وألزمَها دلائلَ الصِّدقِ ، واستَعملَ نَفيَ الغمِّ ، وبُعدَ الحِرصِ ، وزوالَ الهمِّ ، علىٰ ما قدَّمناه قَبلُ . . استمتَعَ بالمدَّةِ اليَسيرةِ مِنْ عُمُرِه .

---

(١) هي ضَرورةٌ إلزاميَّةٌ علىٰ حدِّ تَعبيرِ المناطقةِ ، يُحتِّمُها العقلُ السَّليمُ والمنطِقُ المستقيمُ ، فمَن لم يُصَبْ بمُصيبةٍ . . غيرُ مَوجودٍ .

(٢) المرادُ هنا بالحَشْوِ والهمَجِ : همُ العامَّةُ العَمياءُ مِنَ الدَّهماءِ ورَعاعِ النَّاسِ ، نقيضُ الكبارِ الأجلَّاءِ وعِليَةِ القومِ الَّذينَ ذكرَهم قبلُ مِن صَفوِ النَّاسِ وخِيارِهم .

وفي الإصطلاحِ عند علماءِ الكلامِ : كلمةٌ أُطلِقت وأُريدَ بها مَن أخذَ بظاهرِ النُّصوصِ واكتَفىٰ بذٰلك في معرفةِ مُرادِ اللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منها ، دون الغوصِ في أغوارِ مَرامي تلكَ الألفاظِ الدَّلاليَّةِ الموهمةِ المتشابهةِ الَّتي تحتاجُ إلىٰ علاجٍ ، وأوَّلُ مَن قالَ بها عمرو بنُ عُبيدٍ مِنَ المعتزلةِ ، وقيل : الحسنُ البصريُّ ، وهي لفظةٌ شائعةٌ لدىٰ بعضِ السَّادةِ الأشاعرةِ والماتريديَّةِ ، فيُطلِقونَ في هٰذا السِّياقِ علىٰ خصومِهم بالحشويَّةِ والمجسِّمةِ لذٰلك .

والمصنِّفُ رحمةُ اللهِ عليه إنَّما يقصدُ المعنى اللُّغويَّ مِنَ الكلمةِ ليس غير ؛ وهو أنأى النَّاسِ بنفسِه أن يَزُجَّها فيما يفرِّقُ ، بل يُحذِّرُ مِن ذٰلك ويدعو لما يجمعُ الشَّملَ والكلمةَ ؛ لما عُلِمَ مِن مَجموعِ كتُبِهِ ، خاصَّةً كتابَه : « أعلام الهُدىٰ » وما جاء فيه مِن نصوصٍ تَحُضُّ على الأُلفةِ ، وتُحذِّرُ مِنَ الخُلفَةِ ، صفَّاه مِن كلِّ ما وجدَه ، وجرىٰ عليه مَن سبَقَه مِن سِبابٍ واحترابٍ كانت عواقبُه وخيمةً في تاريخِ الأمَّةِ ، ما زلنا نُعانيها إلىٰ يومِنا هٰذا ، ولو لم يَسبِقوا إلىٰ هٰذا ، واختاروا مسلَكَ الإمامِ السُّهرَورديِّ في خلافاتِهم إلى الجمعِ والتَّوفيقِ بين النُّصوصِ . . لمَا بَنىٰ عليه مَن بعدَهم ، ولَما فُتِحَ هٰذا البابُ الَّذي لم نجنِ منه إلَّا الشَّوكَ ، فاتَّسعَ الخرقُ على الرَّاقعِ ، وسبقَ السَّيفُ العذلَ ؛ ووقعَ الفاسُ بالرَّاسِ ؛ فقرَعنا سِنَّ النَّدمِ ، وَلاتَ حينَ مَندَمٍ .

ثمَّ رأينا العاداتِ في النَّاسِ تَجري معَ الطَّبعِ مَجراهُ ، وتَنقُلُهُ وتستَحوِذُ عليهِ ؛ فيَألَفُها الطَّبعُ ، وتَلزمُها الهمَّةُ ، ويَنصَرِفُ إليها .

فلو ألزمَ نفسَهُ مَنْ يأكلُ لذيذَ الطَّعامِ ما دُونَهُ . . لأُشبِعَ وَأجزَأهُ ؛ إذْ كانا يَتساوَيانِ بعدَ ساعةٍ ، ويَبلُغانِ لِقَصدِ المرادِ مِنَ المُشبِعِ ، وإنَّما يحصِّلُ لذَّةَ ساعةٍ ؛ حتَّىٰ لو دامَ لهُ ما قدِ استَطابَه . . لشَبِعَ منهُ ورَفضَهُ وقَلاهُ .

وكذٰلكَ الملبُوساتُ ، يَحرِصُ الإنسانُ علىٰ ما قدْ لزِمَهُ طَبعُهُ ، وَأَلِفَتْهُ عادتُهُ مِنْ حامِلِها ومُستَحسِنِها ، ولوْ لَبِسَ ما دونَ ذٰلكَ . . لأقنَعَهُ ، وكلٌّ مُتساوٍ في سَترِ العَورةِ ، وسُرعةِ البِلَىٰ .

ولو تدبَّرَ بالحكمةِ ، وتَزيَّنَ بزِينَةِ العلمِ الَّذي هو أفضلُ مَذخورٍ ومَلبوسٍ وزَينٍ . . لم يَغتَمَّ لِفَقدِ مَلبوسٍ .

وكانَ كما حُكِيَ عن ديوجانسَ الحكيمِ [1] ؛ لمَّا عبَرَ عليهِ أيناخُس الملِكُ . . فلمْ يَقُم لهُ ، فوكَّلَ بهِ الحاجِبَ ، فنظرَ إليهِ الحكيمُ ، ثمَّ قالَ : خلقُ إنسانٍ ، وخلقُ بَهيمةٍ ، ما حملَكَ علىٰ ما صَنَعتَهُ بي ؟! قالَ : إذْ لمْ تَقُمْ إجلالاً للمَلِكِ ، فأجابَه الحكيمُ : ما كنتُ الَّذي أقومُ لعَبدِ عبدِي ، فأدركَهُم الملِكُ ، وسمِعَ المقالةَ ، ثُمَّ قالَ : مِن أينَ لكَ أنِّي عبدُ عبدِك ؟! قالَ الحكيمُ : لأنَّكَ عبدُ الدُّنيا وخادِمُها ، ومَن تركَ شيئاً . . فقدِ اقتدَرَ عليهِ ؛ فلمَّا تركتُها أنا اختياراً ، وخدمتَها أنت اضطِراراً . . وجبَ أن تكونَ لها عبداً ، فَعَلِمَ الملِكُ مُرادَه ، ثمَّ عَطَفَ عليهِ بالقَولِ : هل لك في صُحبتِي ؟ فإنِّي مُفوِّضٌ إليكَ خزائنَ الذَّهبِ والفِضَّةِ ، فأجابَه : ما فضلُ شِبَعِ الملوكِ علىٰ مَنْ دُونَهم ؟ قالَ لهُ الملكُ : فأُزَيِّنَك بفاخِرِ الثِّيابِ ، فأجابَهُ الحكيمُ :

---

(١) ديوجانس الكلبي : فيلسوف يوناني ، عاش فيما بين (٤١٣ ـ ٣٢٧ ق م) قال الشهرستاني في « الملل والنحل » (٢/٢٠٠) : (كان حكيماً فاضلاً متقشفاً ، لا يقتني شيئاً ، ولا يأوي إلىٰ منزل ، وكأنه من قدرية الفلاسفة) . وأورد نخبةً من حِكَمه . انظر أخباره في « تاريخ اليعقوبي » (ص ٤٧) ، و« آثار البلاد وأخبار العباد » لزكريا القزويني (ص ٥٧١) ، و« تاريخ الفلسفة اليونانية » ليوسف كرم (ص ٢١٢ ـ ٢١٣) .

إنَّ الوصِيَّةَ سَبقَتْ لنا مِنَ الحُكماءِ المتقدِّمِينَ : ألَّا نُزَيِّنَ أجسادَنا بزينَةِ الثِّيابِ ؛ لٰكن بزينَةِ العلمِ والتُّقىٰ ، فبكى الملِكُ ، وانصرفَ مؤيساً منهُ .

ثمَّ رأينا في عاداتِ كثيرٍ مِنَ النَّاسِ شِدَّةَ حِرصِهِم على المُكتَسَبِ ، وجمعِ ما يَجمَعونَهُ ؛ حتَّىٰ إذا تكامَلَ معهُم ما فيهِ وَطَرٌ . . عَمَدُوا إليهِ فأتلَفُوهُ في العَمارِ ، ورأَوهُ غُنماً ، ولو مُنِعوا عن ذٰلكَ . . لَرَأوهُ غَمّاً ومُصِيبةً .

وكذا المخنَّثُ بالشَّهوةِ الفاضِحَةِ ؛ مِن نَتفِ لحيَتِهِ ، وخَوضِهِ الأخلاقَ الدَّنِيَّةَ ، لو مُنِعَ عن ذٰلكَ ، وأُكرِهَ على الدُّخولِ في زِيِّ أكابرِ النَّاسِ وأجِلَّائِهِم . . لاغتَمَّ بذٰلكَ ورآهُ مُصِيبةً .

وتَرى الشَّاطِرَ معَ ما هو عليهِ مِن قَبيحِ السِّياسةِ ، وكَثرةِ الخَطْبِ بالجِراحاتِ ، وقَطعِ الأعضاءِ وألَمِ العقوباتِ ، ورُبَّما آلَ أمرُهُ إلى القتلِ والصَّلبِ ؛ فلو أكرَهَهُ مُكرِهٌ علىٰ لُزومِ السَّلامةِ . . لرآهُ نقصاً وغَمّاً .

فنقولُ الآنَ : إنَّ غَمَّهُ واجِبٌ في العقلِ ، أم ذٰلكَ عَرَضٌ فاسدٌ مازَجَ حِسّاً فاسداً ؟ وأنَّ العاداتِ المقدَّمِ ذِكرُها جَرَت فيمَنْ ألِفَها وألزمَ نفسَهُ طلبَها مَجرى الطَّبعِ ؛ فتُصلِحُهُ وتُفسِدُهُ ، وتَغُمُّ وتَسُرُّ .

فَلنُلزِم نُفوسَنا طَبعَ القَناعةِ والخيرِ ، وإزالةَ الغمِّ فيما يُدخِلُهُ عليها بسوءِ الطَّمَعِ والِاختيارِ ؛ لأنَّ المحبوبَ والمكروهَ المَحسُوسَينِ ليسَا بشيءٍ في الطَّبعِ لازمٍ ؛ بلِ العاداتِ .

فسبيلُنا : أن نُعوِّدَ نفوسَنا السَّلوَةَ[1] والرِّياضةَ ، وإن أُتعِبت . . فلنَصبِر علىٰ مضَضِ التَّعَبِ والمنازَعَةِ منها ؛ لِما نَرجُوه لها مِنَ الرَّاحةِ في العاجِلةِ والآجِلةِ ، ألَا يُرىٰ : أنَّ كثيراً ممَّن تُعارِضُهمُ العِلَلُ يَرىٰ قَطعَ إرْبٍ ، وكَيَّ عُضوٍ ، ويَتكلَّفُ مَضضَه ؟!

---

(١) السَّلوةُ : كلُّ ما يُسَلِّي ويشغل .

والصَّبرُ علىٰ مَضَضِ النَّفسِ في المنازَعةِ إلى الباطلِ ، وإكراهُها على المعاوَدةِ إلىٰ طريقِ الحقِّ والسَّلامةِ ؛ إذْ علاجُ النَّفسِ أقلُّ خَطراً ، وأخفُّ مَؤونَةً ، وأعظمُ وِزراً ، وإذْ هي مَلِكةُ البَدنِ ، وبفسادِ المَلِكِ يفسُدُ أمرُ الرَّعيَّةِ ، والشَّهَواتُ مَلِكةٌ على النَّفسِ ومُسلَّطةٌ عليها ، والعقلُ مَلِكٌ على الكلِّ ، ومادَّتُهُ مِنَ الأصلِ ؛ فمَنْ كانَ لهُ عقلٌ . . آثَرَ مَصلَحةَ نفسِهِ علىٰ فسادِها ، وبُرأَها علىٰ سَقَمِها .

وليُعالِجْها بِأدويَةِ الحقِّ ، ومَرارةِ الصَّبرِ ، وكَدِّ النَّفسِ ، والكُلفَةِ ؛ حتَّىٰ تَسلَمَ لهُ وتصفُوَ إلى الشَّهواتِ الباقيةِ ، وسُكنىٰ دارِ البقاءِ بعدَ استِعجالِهِ إسقاطَ الهمِّ والغمِّ ؛ إذْ كنَّا بيَّنَّا أنَّهُما طبعٌ رَدِيٌّ ، غيرُ موجودِ الحقيقةِ في مَقاييسِ العقلِ ؛ كما رُوِيَ عن هُرمُسَ الحكيمِ [1] أنَّهُ قالَ : أَولى النَّاسِ رَحمةً مَنْ وقعَ في أَسرِ المِلكَةِ ، قيلَ لهُ : ومَن ذٰلكَ ؟ قالَ : مَن كَثُرَت شَهَواتُه . . فأُدِيمَت [2] حسَراتُهُ .

فهو مَتعوبٌ بِتَصاريفِ كُلَفِها ؛ فإنْ نَفاها عقلُهُ ، وقَهَرَها فَهمُهُ . . فهو عَتِيقُ عقلِهِ ، والعقلُ مادَّةٌ مِنَ الأصلِ .

ومَنْ أعتقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، ورَحِمَهُ مِن شَقاءِ الدُّنيا . . كانَ أَولَىٰ مِن رَحِمَتِهِ وعِتقِهِ مِن شَقاءِ الأُخرىٰ ؛ فمَنْ أرادَ طريقَ الحقِّ . . فهو الواضِحُ لمَنْ سَلَكَهُ ، ومَن أرادَهُ أيضاً . . فليفُكَّ نفسَهُ مِن وَثاقِ الغَمِّ ؛ حتَّىٰ يَتخلَّصَ لِطلَبِهِ ما هو أحوجُ إليهِ ، وَليَفُكَّ رَقَبتَهُ مِن أَثقالِ ما في هٰذا العالَمِ الدَّنيِّ التَّالِفِ ؛ فقد رُوِيَ عن سُقْراطَ الإيتِيِّ : أنَّهُ كانَ يأوِي إلىٰ كِسرِ جُبٍّ قدْ وُطِئَ فيهِ بتُرابٍ ، فقالَ لمَنْ حَضَرَهُ : مَنْ أرادَ قِلَّةَ الغَمِّ . . فليُقِلَّ العَتَهَ ، فقالَ بعضُهم : يا مُعلِّمُ ؛ إنِ انكَسَرَ بقِيَّةُ كِسرِ الجُبِّ ؟ فقالَ : إنِ انكَسَرَ . . لم يَنكَسِرِ المكانُ ، ولمْ أَعدَمِ التُّرابَ .

---

(١) من حُكماء اليونان ، ذكره ابن النديم في « الفهرست » (ص ٣٠٠) ، وقال : (كان من أكملهم عقلاً ، وأصوبهم علماً ، وألطفهم نظراً ، فسقط إلىٰ أرض مِصرَ ، فملك أهلها ، وعمّر أرضها ، وأصلح أحوال سُكّانها ، وأظهر علمه فيها) .

(٢) في حاشيةِ الأصل : (ولعلَّ : فإذْ تمَّت) .

وقدْ حُكيَ عن أندرَ مَلِكِ رُومِيَّةَ : أنَّهُ أُهدِيَ إليهِ قُبَّةٌ بِلَّورٍ ثَمِينَةٌ عجيبةٌ خطيرةٌ ، فَفَرِحَ بها ، وزَادَت بَهجَتُهُ بِوَصفِ مَنْ حضَرَ يُحسِّنُها ، وكانَ في الجُملَةِ الحاضِرَةِ حكيمٌ ، فقالَ لهُ المَلِكُ : ما تقولُ فيها ؛ إذْ أنتَ مُمسِكٌ عنِ الكلامِ ؟ فقالَ لهُ الحكيمُ : أقولُ : إنَّها قدْ أظهَرَتْ منكَ فَقراً وفاقَةً ، ودَلَّتْ منكَ علىٰ عِظَمِ مُصِيبَةٍ متىٰ لَحِقَها خَطَرٌ أو عارِضٌ .

فحُكِيَ أنَّ المِلكَ أرادَ التَّنزُّهَ في بَعضِ الجزائرِ بعدَ حينٍ مِنْ مَجلِسِهِ هٰذا ، فأمرَ بحَملِ القُبَّةِ لتُنصَبَ لهُ في مُتَنزَّهِهِ ؛ فَكسَرَها[1] المركَبُ وغَرِقَتْ ، فدَخَلَ على المَلِكِ عِظَمُ مُصِيبَتِهِ ، ولم يَعتَضْ منها بِسَلوَةٍ حتَّىٰ ماتَ ، وكانَ مِن أمرِهِ ما رآهُ الحكيمُ بعَينِ الحكمةِ .

ويَنبَغِي أن تَعلَمَ : أنَّ كلَّ مُصِيبةٍ مِنْ تَالفٍ أو فَائتٍ ممَّا قَدَّمنَا ذِكرَهُ ؛ فإنَّها إنْ تأمَّلتَها . . وجَدتَها تُعصِّبُ مِنْ همِّكَ واشتغالِ قَلبِكَ ، وإذا بَيَّنَّا ذٰلكَ . . زالَتْ عَن طبعِ المصائبِ والمِحَنِ إلىٰ طَبعِ النِّعَمِ ، ومِن ها هنا تَيَقَّنَ أصحابُ العقلِ أنَّ المصائبَ نِعَمٌ يجبُ الشُّكرُ عليها ، والحمدُ لمُولِيها .

فَتأمَّل أيُّها الأخُ هٰذهِ القَضايا مِثَالاً ثابِتاً في ذهنِكَ ، تَستَجِنُّ[2] بها مِنْ آفاتِ الحُزنِ ، وتَبلُغُ بها درَجاتِ أهلِ الزِّيادَةِ ، غيرَ مُمَلِّكٍ أغراضَ الشَّهَواتِ علىٰ نَفسِكَ ، ولا سالِكاً مَسالِكَ الغَمِّ ، لا سِيَّما علىٰ ما ليسَ بواجبٍ في العقلِ ؛ لأنَّا قدْ بَيَّنَّا ما فيهِ مَقنَعٌ لمَنْ تَدَبَّرَهُ .

معَ أنَّ الَّذي يُحزَنُ عليهِ لا يَخلُو مِن أنْ يكونَ فِعلَنا ، أو فِعلَ غَيرِنا ؛ فإنْ كانَ فِعلَنا . . فَينبَغِي ألَّا نَفعلَ ما يُحزِنُنَا ؛ فإنَّا إذا فَعَلنا ما يُحزِنُنا . . فالإمساكُ عنْ فِعلِهِ إلينا ، فنحنُ نريدُ ما لا نريدُ ، وهٰذا مُحالٌ ، وإنْ كُنَّا نفعلُ ما لا نريدُ . .

---

(١) في المخطوط : (فكسرتها) .

(٢) في حاشيةِ المخطوط : (استِجنانٌ : استِتارٌ بجُنَّةٍ) .

فهٰذا خاصَّةُ العادمِ عقلَهُ ، وإنْ كانَ المحزِنُ لنا فِعلَ غيرِنا . . فلَا نَحزَنُ علىٰ ما ليسَ لنا ، وما هو عاريَّةٌ معنا ، ولصاحبِهَا استِرجَاعُها إنْ شاءَ .

فمَن رُزِقَ التَّدبُّرَ لِمَا قدْ بَيَّنَّاهُ . . فَليُقِلَّ منافستَهُ في الأعراضِ الفانِيَةِ ، وليَتأمَّلْ حقائقَ دَلائلِ الآخرةِ ، وليُنافِسْ في طَلَبِ اللَّذَّاتِ الَّتي لا يُمازِجُها الكَدَرُ ، ولا يُعارِضُها الفسادُ ؛ إذْ كانَتِ المصائبُ عينَ نِعَمٍ ، فكثيراً ما يَعتَدُّ النَّاسُ مُصِيبَةً ونِقمَةً وهُم يَكرَهُونَها[1]

وأنا أقولُ : إنَّما يَكرَهُ الاِقتضاءَ مَن لمْ يُعِدَّ وفاءَ الدَّينِ ، وأمَّا مَنْ عَدَّهُ . . فهو أشهَىٰ إلىٰ مُقتَضاهُ مِنْ مُقتَضِيهِ .

ولو تَدَبَّرَ النَّاسُ أمرَ الموتِ . . لعَلِمُوا أنَّهُ محمودٌ غيرُ مذمومٍ ؛ لأنَّ الموتَ تَمامُ طبِيعَتِنا ، ولو لمْ يكنْ موتٌ . . لم يكنْ إنسانٌ ؛ لأنَّ حدَّ الإنسانِ وصِفَتَه : هو الحيُّ النَّاطقُ المائتُ ؛ فإنْ لمْ يكنْ يموتُ[2] . . فليسَ بإنسانٍ ، ومعَ هٰذا فهو البَرِيدُ إلىٰ دارِ الآخِرَةِ . وإنْ كانُوا يكرهونَ ذٰلكَ .

ومِثَالُ ذٰلك في الحقيقةِ : لو عَقَلَ الإنسانُ وهو نُطفَةٌ مُمازِجُ القُوَّةِ ، ثمَّ خُيِّرَ نقلَهُ مِنْ نَفسِ الطَّبعِ المُمَازِجِ لهُ . . لمْ يكنْ يختارُ غيرَ ما هو فيهِ ، ثمَّ إذا سَبَقَتِ المَشِيئَةُ مِنْ بارِئِهِ ، والإرادةُ مِنْ خالقِهِ جَلَّتْ قُدرتُهُ ، فنقَلَهُ إلىٰ أنْ صارَ في أُنثَيَينِ ، ولو خُيِّرَ الاِنتقالَ . . لمْ يَختَرْ ذٰلكَ ، ثمَّ يُنقَلُ على الرَّحِمِ[3] ، وهو أوسعُ مَحَلّاً مِنَ الأُنثَيَينِ ، فلو خُيِّرَ . . لاختارَ الثَّباتَ ، ثمَّ يُنقَلُ كُرهاً بعدَ كُرهٍ إلى الأحشاءِ والمشِيمَةِ ؛ لتَمامِ الكَونِ والكمالِ .

فلو خُيِّرَ نقلَهُ إلىٰ فُسحَةِ العالَمِ . . لاختارَ مُقَامَهُ ، ثمَّ إنَّهُ مِن جَوفِ أُمِّهِ وخُروجِهِ إلىٰ نَسيمِ هٰذا العالَمِ إنَّما ذٰلكَ على الكُرهِ مِنهُ ، ثمَّ لو قِيلَ بعدَ

---

(١) في المخطوط : (يكرهونه) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

(٢) في حاشيةِ المخطوط : (بميِّتٍ) ، وأشار إلىٰ أنها في نسخة .

(٣) في المخطوط : (الرَّحمة) ، ولعلَّ الصَّوابَ ما أثبتُّ .

مُشاهدَتِه فُسحَةَ العالَمِ : تَرجِعُ إلىٰ جَوفِ أُمِّك وما كُنتَ عليهِ شحيحاً . . لكرهَ ذٰلكَ وأباهُ .

فلذٰلكَ أقولُ : مَنْ نُقِلَ إلىٰ عالَمِ البقاءِ وفُسحَتِهِ ، وإنْ كَرِهَ كُلفَةَ النُّقلَةِ لِعِلَّةِ المعرِفَةِ بما هو صائرٌ إليهِ مِنَ الِاغتباطِ ؛ بدَوامِ البقاءِ الرُّوحانِيِّ ، بِمَا لو خُيِّرَ بعدَ مُشاهدَةِ عالَمِ البقاءِ للرُّجوعِ إلى الدُّنيا ، ويكونُ بجَميعِها كانَ كمَنْ قيلَ لهُ : ارجِع إلىٰ جَوفِ أُمِّك مِن بَعدِ مُشاهدَتِه هٰذا العالَمَ .

فليسَ الموتُ مكروهاً لمَنْ قَدَّمَ وعَقَلَ وتدبَّرَ ؛ إذْ نحنُ في عالَمٍ محدودٍ ، ومُلكٍ مَحصُورٍ ، ودارِ زوالٍ ، وسُكنَى انتقالٍ .

فقدْ بَيَّنَّا الآنَ أنَّ الهَمَّ والغَمَّ علىٰ جميعِ مَنْ في هٰذا العالَمِ غيرُ واجِبَينِ في الحقيقةِ ، وتبَيَّنَّا ما بالِغُ الطَّبعِ [1] ، إلىٰ أن يصيرَ مُسلَّماً لِلهَمِّ وسَبَباً للغَمِّ .

وإنَّ كلَّ ما كَثُرَ مِنَ النَّاسِ طالِبُوهُ . . فغيرُ طالِبِي حقيقةٍ ، بلْ باطلٍ ومُحالٍ ، وتَبَيَّنَّا أنَّ الموتَ غيرُ مكروهٍ .

ورأسُ السِّياسَةِ العَقلِيَّةِ تَركُ اتِّباعِ الشَّهَواتِ والهوَىٰ ، وقَمعُ النَّفسِ عن باطلِ الأمانِيِّ ، وكاذِبِ المواعيدِ ، ولا بُدَّ مِنْ قَطعِ المدَّةِ وبُلوغِ الغايَةِ .

فَمَنْ سامحَ هواهُ ونفسَهُ . . نَدِمَ ، ومَنْ تَدبَّرَ بتَدبيرِ العقلِ . . رَشَدَ ، ومَنْ سَمِعَ الوعظَ والحكمةَ ولم يَعمَلْ بهما . . كانَتا شاهِدَينِ عليهِ ، وهو مَحجُوجٌ بهما .

والله أعلم بالصواب

مؤتي الحكمة وفصل الخطاب

---

(١) وتُقرأ : (ما بالَغَ الطَّبعُ) .